# جماليات المقهى عند نجيب محفوظ

## مقهى الكرنك :

الوصف التشريحى لمقهى الكرنك لا يمكن أن نغفل دلالته القوية والواضحة ..مقهى نظيف فى وسط البلد ، مرتاديه هم طلبة فى الجامعة لهم رأى فى السياسة والثقافة أو لنقل هم مجموعة طلاب جامعيون لهم ثقافة ورأى تجاه الواقع ، يهمهم بالدرجة الأولى الوطن والمستقبل حتى ذلك النفر القليل من المشايخ أو كبار السن يشتركون معهم ولو بالإحساس ..ثم ما نلمسه أن الجميع فى ذلك المقهى يتوحدون .

- ماذا يعنى أن أهم المرتادين هم طلاب الجامعة المثقفين ؟؟..إنها الطبقة والفئة المختارة ولنقل باللغة الماركسية انها طبقة البرجوازية الحاملة للثقافة والوعى ..لديها القدرة على تحليل الواقع وعينها دوما متجهة إلى المستقبل والى الأفضل ، أن الأمل يحدوها فى غد أفضل للوطن بأكمله .. ان رواد مقهى الكرنك من الطبقة المستنيرة والقادرة على قيادة الآخرين .. ولذلك وجدنا المقهى هنا يتسم بملامح لا تتواجد فى المقاهى الأخرى من حيث النظافة والنظام والإتقان، هناك هم واحد يجمع الجميع سواء الكبار أو الشباب أو حتى الهامشيين ..يشير نجيب أن تلك المقهى كثيرة المرايا وهى دلالة أن تلك الطبقة أقصد البرجوازية لديها الرؤية الواضحة لسير الأحداث ولديها الهم الوطنى ولذا نجدها تبذل كل جهدها لتنمية الوعى الجماهيرى ويقظة الفئات الأقل قدرة على الرؤية والإدراك..

- أن أهمية مقهى الكرنك كمكان انه يمثل ما يمكن أن نطلق عليه (المكان القدرى) أو القدرية المحتومة للمكان ..ففيه تحدث الأحداث وما عليه الا أن يستقبلها ، أن قدره أن يكون مستقبلا لأحداث جليلة مرعبة ومحزنة بل وقاتلة ، أن مقهى الكرنك شاهد عدل على اضطراب الوطن وتخبطاته وزلاته ..انه شاهد حى على أسوأ ما يفعله الوطن بأبنائه ..عندما يتنكر لهم ويسحقهم تحت أوهام من المقولات الجوفاء ..الكرنك مكان لمقهى قدرله أن يكون شاهد حى على مسيرة وطن وانكسار الأحلام والآمال داخله وأمثلة تلك الأماكن أنها تدخل التاريخ من أوسع أبوابه ..وتلك جمالية خاصة لهذا المكان الفريد الذى خلده نجيب محفوظ ...
- يقول نجيب محفوظ عن مقهى الكرنك ( اهتديت إلى مقهى الكرنك مصادفة .....من مجلسى أجلت البصر فأحاط بالمكان . كأنه حجرة كبيرة ليس إلا ولكنه أنيق رشيق ، مورق الجدران ، جديد الكراسى والموائد ، متعدد المرايا ، ملون المصابيح ، نظيف الأوانى ، ياله من مجلس ذى جاذبية لا تقاوم . – قرنفلة صاحبة المقهى – تحرك نظرتها الشاملة الساقى والجرسون وعامل النظافة وترعى الرواد المعدودين – كأنهم لصغر المكان أسرة واحدة – بمودة وألفة . ....القهوة فاخرة والماء نقى عذب والفنجان والكوب آيتان فى النظافة) .(٤،٣)
- قدرية المكان كالكرنك أن يكون مستقبلا للأحداث ومتأثرا بها ..انه ترمومتر حساس لكل ما يحدث فى الواقع الخارجى ..وعندما يغيب رواده يضطرب المكان وعند الرجوع يزدهرالمكان ويتألق ..يحزن بالأحداث ويفرح بالأحداث ، انه عاكس للحقائق ، انه مكان مثل المرآة ، عاكس لكل التغيرات والاضطرابات والاهتزازات ..لقد أراد نجيب محفوظ أن يوضح حقيقة المكان

عندما وصفه بأنه يحتوى العديد من المرايا ..وهو حقا مكان عاكس أو مكـــان مرآة لكل ما يحدث ..

- وجرى الحديث بيننا تعليقا على الحدث :
- الاعتقال فعل مخيف حقا .
- وما يقال عما يقع للمعتقلين أفظع
- .....
- .....

- لم أدع أحدا من كبراء الماضى أو الحاضر إلا زرته وسألته ، ولا جواب عند أحد ولكنك تسمع كلاما غير متوقع مثل " من أدرانا ؟" أو " حذار من السؤال والا ساءت العواقب " أو " لا ترحبى بالشباب فى مقهاك ". ماذا حصل للدنيا ؟!) ص٢٠

إذا قدر للمكان أن يكون بمثابة القلب النـــابض والشـــاعر بكـــل الأحـــداث والشاعر بكل الآمال والآلام والأحلام ...اذا حدث ذلك لمكان مـــا ..هنـــا يصـــبح المكان كبيرا حتى وان صغر فى الحجم ..كبر المكان أو صغره يتحددان بحســـب مكانة المكان من الأحداث ..ماذا يهم من مكان شاسع إذا كان بعيدا ومنفصلا عـــن أى أحداث تحدث ؟؟

ومقهى الكرنك صغير فى الحجم ربما ...ولكن كبير فى غاية الكبـــر لأنـــه بمثابة القلب النابض الشاعر بكل ما يحدث فينا فيتأثر ويتألم ويهرم ويشيخ وتعتريه كل العلل والأمراض تأثرا بكل ما يحدث فى خارجه ...

" وما ندرى ذات أصيل إلا والوجوه الغائبة المفتقدة تهل علينا بفرحة مباغته .زينب دياب واسماعيل الشيخ وحلمى حمادة وبضعة نفر آخرين ، أما البقية فلم نر لها أثرا بعد ذلك . هللنا مرحبين ....(٢١)

- أين كنتم يا جماعة ؟

- فأكثر من صوت أجاب : فى نزهة ...

وضجوا بالضحك ، وعاد المرح ولكن الوجوه تغيـــرت ، فـــالرؤوس الحليقة أضفت على السحن غرابة فضلا عن ذبول واضح فى النظر والحيوية .وتساءل صوت – لعله زين العابدين– قائلا:

- ولكن كيف حدث ما حدث ؟
- فصاح اسماعيل الشيخ: دعونا من هذه السيرة ...

وسمعت اسما يتردد ، لا أدرى كيف تردد ولا من كان أول ناطق به خالد صفوان ..خالد صفوان .. ولكن من هو خالد صفوان ؟ محقق؟!..مـــدير سجن ؟!..أكثر من صوت يردد خالد صفوان وكنـــت أختلس مـــن الوجـــوه النظرات وأكاد ألمس المعاناة والذهول وراء الأقنعة . وممكـــن أن أقـــول أن الحياة فى الكرنك استعادت روتينيتها اليومى ولكنها فى الواقع فقدت قـــدرا لا يستهان به من صميم روحها . أسدل ستار كثيف على فترة الغياب المجهـــول فمضت كسر مثير تحوم حوله الأسئلة وترتد خائبة .ورغم المرح والأحاديـــث انتشر الحذر فى الجو مثل رائحة غريبة مجهولة المصدر . وتحملت كل نكته بأكثر من معنى وكل اشارة بأكثر من مغزى وكل نظرة التبست فيها البـــراءة بالتوجس . وقالت لى قرنفلة :

- الأولاد عانوا كثيرا .
- فسألتها بلهفة : هل قال لك شيئا ؟
- انه لا يتكلم وفى ذلك ما يكفى

.....وظلت معلوماتى ترتكز على الخيال حتى اتيح لى بعـــد ذلـــك بسنوات أن تفتح لى القلوب المغلقة فى ظروف جد مختلفة وتمدنى بالحقـــائق

المرعبة وتفسر لى ما غمض عليى فهمه من الأحـــداث فـــى ابـــان وقوعهـــا (٢٤،٢٢).

- أن أهم ما فى مقهى الكرنك أنها صورة حقيقية للوطن ، تصوير دقيق لمآسى الوطن وانكساره ، صورة صادقة لكافة التناقضات التى تموج داخله وصورة لتلك الحيرة الكبرى وعلامات الاستفهام الكبرى والتى تتضخم كل يـــوم مـــع تصاعد حدة التناقضات حتى يصل إلى الطامة الكبرى والإجابة الحاسمة لكل التناقضات ، إنها الهزيمة بكل أبعادها ..هذا هو مقهى الكرنك انه القلب الذى قدر له أن يتحمل ويعكس أزمة وطن وانكساره وهزيمته رغم ما تبـــدى فـــى الأفق من انجازات عظيمة ..

- ( وللمرة الثانية اختفى الشبان .

وقع المقدر فجأة وبلا سابق إنذار كما حدث فى المرة الأولى . ولـــم يقع أحد منا فى حيرة التساؤل وعذاب الشك ولكن اجتاحنا الانزعاج والذهول .

.....

وبعد مرور أيام جالستنى قرنفلة ، طالعتنى بوجه كئيب ثـــم ســـألتنى باهتمام : خبرنى عن معنى ذلك ؟

قرأت خواطرها الخفية ولكننى تجاهلتها ، فقالت : توجد حولنا أسرار!

فتمتمت : ربما

.....

فتنهدت وقالت بامتعاض شديد :

- لم يعد فى الدنيا أمان ...

ورجع الصمت المشحون بالأسى وقعدت قرنفلة على كرســـى الادارة كتمثال فاقد الحياة . أجل كانت تلك الحوادث تقع كل يوم ولكن تأثيرها يختلف اذا وقعت قيمن يعدهم الإنسان أسرته . وشككنا فى كل شئ حتـــى الجـــدران

والموائد . وعجبت لحال وطنى . انه رغم انحرافه يتضخم ويتعظم ويتعملق ، يملك القوة والنفوذ ، يصنع الأشياء من الإبرة حتى الصاروخ ، يبشر باتجاه انسانى عظيم ، ولكن ما بال الإنسان فيه قد تضاءل وتهافت حتى صار فى تفاهة بعوضة ، ما باله يمضى بلا حقوق ولا كرامة ولا حماية ، ما باله ينهكه الجبن والنفاق والخواء)(٣٠،٢٧)

- إن من جماليات هذا العمل أنه يمثل ذاكرة وطن وذاكرة أمة لايمكن تجاهلها عندما تريد أن ترى حقائق الأشياء بشكل دقيق وأمين ..فى عصر الستينيات من القرن الماضى ، هل يمكن أن نتجاهل الكرنك ..انها شاهد عدل لحقيقة العصر ..وتلك هى عظمة وقيمة وجمال الفن . قدرته على البقاء ليقف منتصبا أمام الجميع ليقول تلك هى الحقيقة ...

يقول نجيب مجفوظ ( ولدى اقبالى على المقهى ذات مساء لمحت وجه قرنفلة مشرقا . دهشت حقا واجتاحنى فيض من الأمل فاندفعت نحو الداخل ،وسرعان ما وجدتنى حيال الأصدقاء المحبوبين ، زينب واسماعيل وحلمى واثنين أو ثلاثة آخرين . وتعانقنا بحرارة وضحكة قرنفلة تباركنا ، وتبادلنا الأشواق متجنبين أين وكيف ولماذا ، ولكن تردد فى همس اسم خالد صفوان الذى صار رمزا من رموز حياتنا لا تكمل إلا به ....

.....

ولكن الخسارة تبدت ملموسة أكثر من المرة الماضية . هزلوا كأنهم خارجون من مجاعة ، لاحت بأعينهم نظرة حزينة وساخرة ، ورسب فى زوايا أفواههم امتعاض راسخ . أن حرارة الحديث تذيب الرواسب فإذا فرغوا منه وخلوا الى أفكارهم اختفت الأقنعة وتجلى الفتور والعزلة . حتى العلاقة الحميمة بين زينب واسماعيل تعانى داء خفيا لا يكاد يرى عند النظرة العابرة

الأمر الذى أثار عواطفى وتساؤلاتى . يا ألطاف الله ، أن الآلة الجهنمية تطحن أول ما تطحن الرأى والإرادة ، فماذا يعنى هذا ؟ )٣٤،٣٥

.....

.....

وفى أواسط ربيع العام وقع الاختفاء الثالث !

لم يترك تلك المرة أى تساؤلات ولا عنفا فى ردود الأفعال . تبادلنا النظرات . هززنا رؤوسنا ، نطقنا بكلمات لا معنى لها : كالعادة .

- نفس النتائج
- لا جدوى من التفكير (٣٨)

.....

وكما سبق وأشرن أن قشتمر كمكان يمثل مرآة للأحداث وفيه نتعرف وتتعرف الشخصيات داخله على كل المعارف والمعلومات الخاصة بالوطن فى زمن معين ..وفيه أيضا تنطلق الأسئلة وعلامات التعجب والبحث عن المعنى وعن الهوية ..وفى المقهى تزداد الذات حيرة فى بحثها عن أى سمة هى تكون وأى هوية هى تكون وسط كل ما يحدث من أحداث لا معنى لها ..انها أزمة الهوية أو المكان والبحث عن الهوية .

لذلك نقول انه ( يمكن أن نتحدث عن وظائف أخرى للمكان ، مثل المعرفية congnitive function التى يزودنا المكان فيها بالهاديات أو المعاينات أو المعلومات المناسبة للسلوك ، كما يزودنا بوسائل لاستعادة ذكرياتنا الخاصة والعامة

وأيضا يمكننا الحديث عن الوظيفة الأداتية أو الوسيلية instrumental function للمكان ، التى تشير الى أننا نستخدم المكان بوصفه وسيلة للاتصال

المتكرر مع الجماعات المختلقة ، وأيضا للقيام بالنشـــاطات المرغوبـــة أو غيـــر المرغوبة ....

ويرتبط بموضوع الهوية بشكل وثيق موضوع آخر يكاد يكـــون بمثابـــة الوجه الآخر للعملة ، ألا وهو موضوع أزمة الهوية . وهناك وجهات عـــدة مـــن النظر فى الفكر السيكولوجى المعاصر حول الهوية ، وأعطـــت اهتمامـــا خاصـــا للتحولات التى تحدث فى هذه الهوية ، وهى التحولات التى يشترك فيها المرء على نحو نشط ، وقد تعانى الذات أو تمر خلال ذلك بتحولات مؤثرة أو دراماتيكية فى حياتها ، مما يحدث انقطاعا مع الذات المبكرة..)(١)

ولبثنا متلهفين حتى استيقظنا على أعنف مطرقة صكت رؤوســـنا الثملـــة بنشوات العظمة . ولن أنسى ما زفره طه الغريب ، وهو أطعنا سنا ، فقد تجلـــى الأسى فى عينيه وقال :

- ها أنا ذا على حافة القبر ، وسيجئ الأجل بعد أسبوع أو شهر ، فياربى لم لم تعجل به قبل أن يدركنى هذا اليوم الأسود !

وأحرق الحزن قلوب الشعب البرئ ، ولم يعد له من أمل فى الحياة إلا أن يرد الضربة ويسترد الأرض ولكنى أنصت هنا وهناك إلى قلـــوب تخفـــق بالشماتة والفرح ، وبدأت أدرك أن الصراع ليس صراعا وطنيا خالصا ، وأن الوطن ينزوى حتى فى أشد أحوال المحن فى خضم صراع آخر يحتدم حـــول المصالح والعقائد ، وجعلت أراقب هذه الفكرة فيما تلا ذلك من أيـــام وأعـــوام حتى وضحت جوانبها وتعرت جذورها ، فإذا بيوم ٥ يونيـــة يســـتوى فـــى التاريخ هزيمة لقوم من العرب ونصر لقوم آخرين منهم أيضا ، وأنـــه جـــاء ليهتك الستر عن حقائق ضارية ، وليعلن حربا طويلة المدى بين العرب أنفسهم لا بينهم وبين اسرائيل فحسب.(٤٠)

نقول ...ان جمال مقهى الكرنك أن نجيب محفوظ شحنه بطاقة تـــأبى الانتهاء ، طاقة قادرة على البقاء مهما مر الزمان ..إن المقهى يحمل الهم العام وليس الخاص وهذا ما يدخله الى جماليات الابداع الحقيقـــى ..ان المكـــان لا يحوى هما فرديا أو شخصيا ، بل أصبح بوتقة تحمل الهم العـــام يعبـــر عنـــه أشخاص تجاوزوا ما هو ذاتى ليعبروا عن ما هو عام . وهذا هو الهـــام فـــى مقهى الكرنك ..إن الهم والأسى لا ينحصر ولا يتقوقع على ما ذاتى وفـــردى وإنما تعدى ذلك ليعبر عن ما هو عام انه الهم الوطنى

**مقهى قشتمر :**

رأينا المكان الذى يتواشج مع الوطن بأكمله ..كان الكرنك شاهد اثبات لتحركات الوطن وعثراته ..

أما اذا انتقلنا الى مقهى قشتمر ..فاننا نلمس فيه بعدا جديدا مختلفا عن السابق ..هذا المقهى يمكن أن نقول عنه أن المكان يذوب فى داخل الأشخاص. لقد انصهر المكان داخل الأفراد فأصبحوا هم والمكان شئ واحد ..ولا يمكـــن تصور حياتهم بدون هذا المكان أو بدون قشتمر ..فهو الـــذى شـــهد حيـــاتهم ونضجهم ودخولهم لعهد الرجولة ثم المشيب ، رحلة عمر ســـجلها المكـــان ، وتاريخ مكان شهده رواده ..صلة حميمية بين المكان والرواد لذا وجدنا بقـــدر ما يحدث للأفراد يحدث نفس الأمر للمكان ...

يمكن لنا أن نقول أن مقهى قشتمر لعب دور وظيفـــى داخـــل رواده ومرتاديه ..(وترتبط هذه الوظيفة ارتباطا كبيرا بالوظيفة الجغرافية للمكـــان . فالمكان تكون له وظيفته الرمزية التى تفيد فى تأكيد وتعضيد البناء الأساســـى للشخصية لدى الفرد ، فالخبرات المتكررة فى مكان معين تساعد فى تطـــوير احساس ما بالاستمرارية ، وشعور ما بالانتماء لمكان معين يجـــاوز الأفـــراد

وظروفهم الخاصة المباشرة .ولا يشترط أن تكون الأماكن التى تدعم احساس المرء العميق بالهوية هى الأماكن التى يتحرك هذا المرء فيها وينشـــط الآن ، بل يمكن أن تكون أماكن تنتمى الى الماضى أو تنتمى الى الحاضر وهو بعيد عنها الآن ، يحن اليها ويتمنى أن يفنى فيها ، فالذكريات والتخيلات وأحـــلام اليقظة ، وكذلك المعلومات الحقيقية المرتبطة بأماكن معينة ، تفيد فـــى تأكيـــد احساس المرء بذاته وفى تأكيد هويته ، وفى ترسيخ شعوره باستمرارية هـــذه الهوية .(٢)

ويصح لنا أن نقول أن المكان أقصد قشتمر تشخصن فى داخل الرواد أو أصبح أحدهم . هو بمثابة شخص يلازمهم دوما خلال رحلة العمر ...

يقول نجيب محفوظ " .....وتتغير المصائر وتتفاوت الحظوظ ولكـــن تظل العباسية حينا وقشتمر مقهانا ، وفى أركانه تســـجلت أصـــواتنا مخلـــدة البسمات والدموع وخفقات لا حصر لها من قلب مصر . (٦،٥)

...وفى عامنا الدراسى الأول – الثانوى – هدانا الهادى الـــى مقهـــى قشتمر . ....وطالعنا قشتمر بلونه الأخضر الزاهى ، وحجمه المحدود الذى لا يزيد عن حجم بهو بسراى الزين باشا – كما قال صادق – ومراياه المثبتة فى الجدران ، وحديقته الصغيرة الموصولة به بـــاب صـــغير مفتـــوح ، تنطلـــق بأركانها نخلات أربع ، ويقوم فى الوسط عدد من الموائد فى صـــورة مربـــع متساوى الأضلاع . .....جلسنا حول المائدة نتلقى النظرات المستطلعة بوجوه ساخنة حتى جاءنا النادل وبدأت الممارسة الجديدة . هكذا عرفنا قشـــتمر فـــى أواخر ١٩٢٣ أو أوائل ١٩٢٤ ، ودون أن ندرى أنه سينعقد بيننا وبينه زواج لا انفصام فيه ، وأنه سيصغى بصبر وتسامح الى حوارنا وأســـاطيرنا عمـــرا طويلا ، بل ما زال يصغى مستوصيا بصبره وتسامحه ...(٢٨)

..ويواصل ركن كشتمر سمره ما بين الأصالة والمعاصرة منبهرا بكل جديد فى الفكر أو العلم متطلعا الى حكم صالح ينعم فيه بالاستقلال والديمقراطية (٦١)

وصمد قشتمر وكأنه وطن ثان لنا . وتوفى صاحبه الكهل وحل محله ابنه . وترددت فيه أصواتنا تحتفل بسقوط صدقى . وبشائر سياسة جديدة ، وأنباء عن نجاح النازى بزعامة هتلر ، ومعاهدة ١٩٣٦.....(٦٩)

.....

وانهمرت على ركن قشتمر الأخبار المثيرة ، مصرع أحمد ماهر، حرب فلسطين ، مصرع النقراشى الحرب بين ابراهيم عبد الهادى وبين الاخوان ، عودة الوفد ، حريق القاهرة . كتب علينا أن نعايش الهموم ونتجرع الأحزان ونكظم الغضب أو نزرفه سمرا ونكاتا ونوادر هزلية . (٩٧)

...ونحن على حال كئيبة من المرارة والسخرية والتقزز ، هل علينا يوم ٢٣ يوليو كالسحر المبين . شملتنا صحوة طاغية وتتابعت الحوادث كالأحلام ، فرحل الملك والاقطاع والالقاب ، وبرز الفقراء والضائعون من القاع فتربعوا على العرش، وأصبح كل مستحيل ممكننا . ولم يعد لنا من حديث فى ركننا العتيد بقشتمر الا حديث الحركة المباركة.(١٠٥)

.....وظل ركننا بقشتمر عامرا بوجودنا فلم ننقطع عنه الا فترة قصيرة حينما قرر صاحب المقهى تجديده . (١١١)

ويمضى بنا الزمن ، نطوى كل يوم خطوة فى الحلقة السابعة . من عجب أن صحتنا تنافس همومنا فى قوتها . وعصر الزعيم الثانى عامر أيضا بالمفاجآت ، فهو عصر المنابر والنصر والسلام والانفتاح وعصر أكبر درجات سجلها الفساد فى تماديه واستفحاله ، ولا نكاد نفطن الى ما طرأ علينا

من تغير الا أن نطلع لمناسبة على صورة قديمة فنقارن ذاهلين بين ما كنا وما نكون . ونزداد التصاقا ومودة ، ويمسى قشتمر عضوا فينا كما نمسى ركنا فيه ، ونتبادل النظرات ونتذكر الراحلين ونعرف أن يومنا سيجئ .(١٢٣)

.....

هلموا نمضى معا فى الحلقة الثامنة . ركن قشتمر باق ، ربنا يديمه !المكان المستقر الوحيد مهما تثر العواصف من حولنا . ولا تحول جدرانه القديمة بيننا وبين الدنيا . وتمر السنون سراعا فلا تمنع قلوبنا من الخفقان أو ألسنتنا من الكلام ، حتى الحلم ننعم به ، فضلا عن ذكرياتنا المشتركة ومودتنا الأصيلة ، تمدنا بين الحين والحين بنادرة نرددها أو ابتسامة نبتسمها . حفا يرعبنا الغلاء ، ويكدرنا الفساد ، ويوم قتل الزعيم فزعنا وتساءلنا عما يخبئه لنا الغد (١٤٢،١٤١)

.....

وقال لنا صادق صفوان يوما :

- أقترح أن نحتفل بمرور سبعين عاما على صداقتنا الوطيدة ...

وضممنا الاقتراح الى صميم قلوبنا . وقال حمادة :

- لنحتفل به فى خان الخليلى ..

- فقال طاهر عبيد : العوامة أفضل

- ولكن اسماعيل قدرى قال :

- بل فى قشتمر ، فنحن وصداقتنا وقشتمر كل لا يتجزأ

ووافقنا على ذلك دون تردد ، وأملى المكان على الحفل بساطة تناسب أعمارنا وصحتنا ، فاكتفينا بشراء تورتة ، وأعددنا الشاى ، وأخذ كل منا

قطعة، وفرقنا الباقى بين صاحب المقهى والجرسونات وماسحى الأحذية ....(١٤٦،١٤٧)

نقول ..هناك أماكن تغزو وجدان الانسان فتسكن فى داخله حافرة لنفسها مكانا أمينا من المستحيل أن تبرحه مهما طال الزمان ومهما كانت الأحداث ..وتلك الأماكن غالبا ما تغزو الذات وهى غضة تشق طريقها فى الحياة ، فيستهويها ذلك المكان أو ذاك وتظل الصحبة يوما بعد يوم حتى يتلاصق الاثنان فيصبح المكان بمثابة الصاحب الأليف أو شخصا قدرته الأقدار يلازمك حتى نهاية الرحلة ....بهذا المعنى يكون قشتمر.لقد لعب قشتمر فى حياة الرفاق وأصدقاء العمر ما يمكن أن نطلق عليه الوظيفة التعبيرية للمكان (فاختيار المرء وتعبيره ووصفه الأماكن وانتقاله عبرها ، يسمح له بالتعبير عن القيم الفردية والجماعية الأساسية التى يؤمن بها هذا الفرد وهذه الجماعة ، أو يتمنى حدوثها ، وهى يمكن أن تكون مجموعة من القيم الدينية والاخلاقية أو مجموعة من القيم الاقتصادية والاجتماعية أو الجمالية ، أو غير ذلك .

فتصوير المشاهد التى تحدث فيها نشاطاتنا ، أو حديثنا عن هذه المشاهد وهذه النشاطات ، يمكنه أن يعبر عما نحن فيه أو عليه الآن ، وعما نطمح الى أن نكون عليه فى المستقبل ، وترتبط هذه الوظيفة بدرجة كبيرة بالوظيفة الجغرافية والوظيفة الرمزية للمكان )(٣)

( وسواء كان المكان الذى يصوره الكاتب مكانا داخل الوطن أو خارجه ، فاننا نلمح دائما ذلك الحس النقدى الرافض الذى لا يقنع بالوضع الراهن ويدعو الى التمرد عليه وتغييره ، ويستنكر ما يحدث من فساد فى التفكير والأخلاق والسلوك وينادى بقيم العدالة والحرية )(٤)

لذلك نقول أن من أهم الملامح الجمالية لقشتمر أنه مكـــان تمكـــن أن يتماهى مع الأفراد ويلتصق بهم حتى أصبح واحدا منهم . شعر وأحس وتـــألم وحزن مثلهم ...كان صغيرا بورقه الأخضر مثل بدايات خطواتهم للمراهقـــة وكبر وشاخ وهرم معهم ...مكان يحكى قصة أصدقاء على مدى سبعين عاما ...وفى نفس الوقت يحكى قصة وطن خلال تلك المرحلة ...تتشابك الأحـــداث وتذهب هنا وهناك ولكن يبقى المكان فى كل التحركات لصيقا بهم معينا لهـــم وجامعا لهم أيضا ...انها مقهى قشتمر....

## الهوامش:

(١) د. شاكر عبد الحميد : الحلم والرمز والأسطورة (سبق ذكره) ص٣٠٧،٣٠٨

(٢) السابق ص٣٠٣

(٣) السابق : ص ٢٠٦،٢٠٧

(٤) السابق : ص ٣٠٤

# خاتمة

ما يمكن أن نقوله فى الخاتمة ،أن المكان عند نجيب محفوظ هو البطل الحقيقى فى الأعمال التى تناولتها تلك الصفحات .. وهو يبدأ نقطة انطلاقه من الحارة المصرية ..

والحارة فى اللغة هى الشارع الصغير ، ولكنها عند نجيب محفوظ تأخذ أبعاد أعمق دلالة ، فهى قد ترمز الى العالم كله كما فى أولاد حارتنا ، وقد ترمز الى المجتمع المصرى كما فى زقاق المدق وقد تزمر الى المجتمع الانسانى ، فى توالى عصوره ، كما فى الحرافيش . والحارة فى الأصل جزء من مجموع المدينة ، يتخللها الطريق ويوجد بها المرافق العامة ..

ويصف أحمد أمين الحارة بأنها بقعة على يمين الشارع أو شماله ، ويسكنها قوم بينهم روابط والشارع يشمل حارات ودروب والحارة تشمل على عطفات . ومن الحارة ننتقل الى الزقاق وهو:

الطريق الضيق ويجمع أزقه فى اماكن اخرى وبالتحديد فإن العلاقة بين ابناء الزقاق بديهية ، أو مفترضة . المدخل واحد ووحيد ، والنوافذ تقترب فتكاد تتلاصق وتطورات الحياة معلنة ، والخلافات الطارئة ما تلبث أن تغيب بتدخل الجيران ، أو بتجديد اللقاءات ، والتكافل يفرض نفسه ، فيبدو الجميع كأنهم افراد اسرة واحده ، يتفقون ويختلفون وربما علا بينهم الشجار ، لكن خصوصية العلاقة سمة ثابتة ومتواصلة .

والزقاق هو التعبير عن المدينة التقليدية ، تلك التى لم تتأثر بما وفد على المدنية الحديثة من عادات ومعتقدات وانماط سلوكية ، ولعل الزقاق . من ناحية اخرى هو همزة الوصل من حيث البعد الاجتماعى والاخلاقى – بين

الريف والمدنية – انه يشكل – على نحو ما ملاذا للقيم والموروثات التقليدية ، بعكس الحياة المغايرة فى المدينة التى يختلف ايقاعها (١)

وفى زقاق المدق نلاحظ أن المكان هو البطل الحقيقى . ولأن اعتناء الكاتب موجه الى الزقاق كبطل ، اصبحت الخلفية الاجتماعية هى المسيطرة على الشكل العام وباقى الشخصيات . سواء كانت اساسية أو ثانوية ليست الا مجرد جزيئات مكونة له ووحدة المكان النسبية فى الزقاق ساعدت الى حد كبير فى ربط الاحداث بالشخصيات فى اتساق طبيعى خال من الافتعال . ولكن وحده المكان لم تساعد كثيرا والاشتغال فى المعسكرات البريطانية لارضاء طموح حميدة . .. (٢)

ان المكان عند محفوظ يتمركز فى الحارة المدنية ومنها الى القهوة وكلها تنم أو تشير الى السمة الحداثية التى اتسم بها نجيب فى اعماله الروائية .. اننا نزعم أن نجيب محفوظ امكنه المزج بين الرؤية الاوربية فى السرد والوقائع المصرية المتعبئة أو المتحققة .. انها حداثة بين امشاج مختلفة بين التخلف الشرقى والتقدم الغربى ..

ومن هذا المزج تمكن محفوظ أن يخرج بحداثة خاصة .

والحداثة عند نجيب محفوظ لها طبيعة جديدة تتمثل فى :_

١- قدرتها على تخليص السرديات العربية من جمودها وتقنياتها الثابتة وتقديسها وعبادتها للتراث .

٢- قدرتها على تحرير السرديات العربية من الصراعات الموهومة والزائفة والتى تطغى وتمحى تفاصيل الحياة اليومية المعاشة .

٣- حداثة تمكنت أن تدفع البشر العاديين لمسرح الصراع بكل طبقاته الاجتماعية وفئاته المختلفة . ولأن نجيب محفوظ ابن المدينة لذا نجده يتعلق

ويتشبث بالحداثة المكانية للمدينة وهى القائمة على العلم والتصنيع والمعرفة والثقافة ووسائطها المختلفة .

والحداثة السردية للمدينة تهتم بالبشر العاديين والحقيقيين ولذا وجدناه يرصد المدينة مع جوهر وجودها .. أو فى نقطة ارتكازها .. انها الحارة أو سرد الحارة ، انه استاذ الحارة بلا منافس . هذا ما وجدناه فى زقاق المدق ، قصر الشوق ، بين القصرين ، لسكريه ، بداية ونهاية ، خان الخليلى ... الخ .

الحارة عند نجيب هى بمثابة المعادل الرمزى للمجتمع ، والحارة بوصفها مكان محدد جغرافيا فإن نجيب يستخدم السرد لتوليد وتشكيل الحاكيات العاكسة لكل انواع الصراعات على مختلف انواعها سواء اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية . ومن خلال ذلك السرد المحفوظى للحارة تمكن من:_

١- استطاع محفوظ أن يكشف عن كل القوى الفاعلة حتى الجماعات الهامشية والجماعات التى تقوم على اقتصاد الخدمات .

٢- استطاع أن يكشف كل تناقضات الطبقة المتوسطة فى السلوك اليومى أو فى سوق العمل .

٣- استطاع أن يقدم طموحاتها واشواقها الانسانية الانسانية فى تلك اللحظة وحتى الخروج من علاقات التخلف .

٤- استطاع محفوظ من خلال سرد الحارة أن يكشف عن ميله وانحيازه الى المشروع الليبرالى ...

- حداثة محفوظ وايمانه الليبرالى ودخوله للقهاوى :_

لماذا اختار محفوظ القهوة ؟؟ .. القهوة لها طبيعة خاصة حيث يتميز :_

- انها ذات حرية مفرطة ومفتوحة لكل الطبقات والتى لا خصوصية لها.

- انها تتحرر من تقاليد المنزل والمسجد واماكن العمل .

- انها مكان لفائض الوقت والمال وما تطرحه من علاقات لذائذية وترفيهية.

- انها تلعب دورا هاما فى العمل السياسى وفى تطور فنون الغناء والسير الشعبية .. إن المقهى فى سرد محفوظ من اكثر الاماكن ليبرالية واقربها الى قلبه وقد آثرت على طريقة السرد اذ جعلته مفتوحا ومتعددا فى اختيار الاحداث والشخوص الفاعلة . وقد لا يحتاج البناء الى منطقية صارمة فى التطور وانما يحتاج الى مبررات انسانية ، يحكمها بعض العبث أو التهكم الاسود ، القائم على المفارقة الحياتية . أن مجاز التجاوز الذى تطرحه المقهى يقرب سرد محفوظ من المشهدية ، القائمة على العلاقات الاعتباطية والعفوية أو وليدة الخيال الذى يعتمد على حاسة الابصار لا السماع . وكل ذلك احتاج الى لغة دقيقة وواضحة ومتعددة فى الان نفسه ، حسب شخصية الراوى والابطال الذى يشكللون محور الصراع فى الحكاية ( ٣) .

**ملاحظات :**

**أولا :** مقهى نجيب محفوظ تجسيد لحقيقة وطبيعة المجتمع بأكمله .. ولفهم ذلك نقول ..انظر لأنواع التسلية التى تنتشر فى المقهى ..تجدها الدومينو، الطاولة ، الكوتشينة ..وكل تلك الألعاب لا تتسم بأى نوع من التفكير أو التدبير أو الفن ..انها تقوم على فكرة الحظ والمصادفة ، كل من يلعب هو ينتظر ما يأتى به الزهر ..انه انتظار شيئ لا يصنعه ولا يديره ولا ينسقه ..كل شئ مصادفة ،وحظ ولا دور للانسان على الاطلاق .

تلك الملاحظة هامة ،فطبيعة اللعب تحدد طبيعة الشخصية وامكاناتها ،وليس عجبا أن نجد سريان التواكل والاعتماد على الحظ والمقادير والقدر وكل

شئ مكتوب مسبقا ..مثل تلك المقولات المنتشرة فى العقل المصرى والمجتمع عامة دليل حى على اللافعل واللاتدبير فى الحياة ، فإذا كان الشخص يلعب وهو ينتظر ما قد يأتى به الزهر فهو يعيش أيضا منتظرا لما تأتى به المقادير ، وهذا يعنى أن الانسان سلبى تماما ولا يستخدم ارادته وقدراته وامكاناته فى الحياة وفى اللعب ايضا ..

**ثانيا** : المقهى عند نجيب محفوظ تعتبر بمثابة المكان الثالث فإذا كان المنزل هو المكان الأول والعمل هو المكان الثانى فإن المقهى يعد بمثابة المكان الثالث والذى فيه تتخارج الذات وتتحرر من الضغوط وقيود العمل والمنزل ... ويخيل اليى أننا لا نغالى اذا قلنا أن الانسان فى المقهى يكون أكثر تحررا من أى مكان يتواجد فيه ..ان ذات الفرد تتخارج أو تنطلق كما تحب وهى جالسة فى المقهى مع رفاق يحب صحبتهم ويحب سمرهم ..قد لا يكون ذلك بشكل مطلق تماما ولكنه هو السائد وهو الأكثر شيوعا والأكثر ملاحظة.

**ثالثا** : هناك أعمال أسمها على اسم المقهى مثل:قشتمر ، الكرنك..

هناك أعمال بها مقهى مثل : مقهى حنش ، مقهى كرشة ، مقهى النوبيين ، مقهى طرزان ، مقهى الأمراء ، مقهى الأوبرا ، مقهى أحمد عبده ، مقهى الفيشاوى

هناك أعمال تغيب عنها القهوة : القاهرة الجديدة ، الشحاذ ، عصر الحب ، أفراح القبة ، الباقى من الزمن ساعة ، الطريق ، بيت سيئ السمعة ، ثرثرة فوق النيل ، خمارة القط الأسود

**رابعا:** أصناف المكان

أ- المكان الفاضح لأهله : هو المكان الذى يعرى شخصياته ويكشف أدق تفاصيل حياتهم . فى هذا المكان نقول عنه هو مرآة عاكسة لأصحابه . وقد تمثل ذلك فى رواية زقاق المدق فهو الكاشف والمعرى لطبيعة كل قاطنيه .

ب - المكان المفجر للأحداث :أى منه تبدأ الأحداث أو تنطلق منه واليه تعود وهكذا ، وهذا واضح مثلا فى قهوة المعلم طرزان فى اللص والكلاب .

ج - المكان بين الطرد والجذب ،...أغلب المقاهى أماكن جاذبية لا طاردة .

د - المكان والاحساس الحميمى :تتضح جماليات المقهى فى خان الخليلى فى قدرتها أن تلقى الضوء على أكثر من مجال جمالياته من حيث المكان ..حيث موقعها فى خان الخليلى قرب مسجد سيدنا الحسين ،أى قربها من الطقوس ومراسيم الدين.

# الهوامش

(١) انظر محمد جبريل : مصر المكان . الهيئة العامة لتصور الثقافة . فبراير ١٩٩٨ ص ٢١٩ .

(٢) نبيل راغب : قضية الشكل الفنى عند نجيب محفوظ الهيئة المصرية العامة ١٩٨٨ ، ص ١٠٩ ، ١١١ .

(٣) انظر : فتحى عبد الله : سرد محفوظ افندى فى ثقافة العرب ( مقال ) فى الثقافة الجديدة. عدد خاص عن نجيب محفوظ ٢٠٠٦ ص ١٧٠ .